(٦٦) أبو بكر الورّاق[١]

ذكر الشيخ أبي بكر محمد بن عمر الوراق رحمه الله:

كان رحمه الله ترمذيًا، وأقام ببلخ، وكان من أكابرِ الزُّهاد والعبّاد، وفي الورعِ والتقوى والتجريد والتفريد كاملاً، وفي المعاملةِ والأدب عديمَ النظير، حتى سمّاه المشايخ: مؤدّب الأولياء.

وصحب: محمد بن علي الحكيم، وأحمدَ بنَ خضرويه، وغيرَهما رحمهم الله.

وله تصانيفُ في الرياضات والآداب.

وكان رحمه الله يمنعُ أصحابَه عن السفر والسياحات، ويقول: مفتاحُ كلِّ بركةٍ الصبرُ في موضع إرادتك إلى أن تصحَّ لك الإرادةُ، فإذا صحَّتِ الإرادةُ فقد ظهرَ لك أوائلُ البركة.

أقول: نقل أنه قال: لو قيلِ للطمع: من أبوك؟ قال: الشكُّ في المقدورات. ولو قيل: ما حرفتُك؟ قال: اكتسابُ الذلِّ. ولو قيل: ما غايتُك؟ قال: الحرمان. والله أعلم..

نقل أنه قال: كنتُ دهرًا طويلاً في اشتياقِ الخضرِ عليه السلام، وأمشي كلَّ يومٍ إلى المقابر، وأقرأُ جزءًا من القرآن في الذهاب والإياب، فيومًا خرجتُ من بابِ المدينة، فاستقبلني شيخٌ نورانيٌّ وسلَّم عليَّ، وقال: تُريد الصُّحبةَ؟ قلت: نعم. فتماشينا إلى المقابر، ورجعنا إلى باب المدينة، ونتكلّمُ في الطريق، فلمّا

---

(١) طبقات الصوفية ٢٢١، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٥، الرسالة القشيرية ٨٤، الأنساب ٣/ ٤٥، مناقب الأبرار ٤٧٠، صفة الصفوة ٤/ ١٦٥، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٤٢٤، طبقات الأولياء ٣٧٤، نفحات الأنس ١٨٤، طبقات الشعراني ١/ ٩١، الكواكب الدرية ٢/ ١٢٣.

أرادَ أن يرجعَ قال: أنا الخَضِرُ، وكنتَ في طلبِ صحبتي مدّةً، واليومَ اشتغلتَ بالصُّحبةِ، وتركتَ وردَكَ من قراءةِ القرآن، فإذا كانتِ الصُّحبةُ مع الخَضِرِ هكذا، فكيف مع غيره؟ فعلم أنَّ العزلةَ والوحدةَ والخلوةَ والاشتغالَ بالحقِّ أشَرفُ وأَفضلُ من الصُّحبة.

نقل أنه رحمه الله كان له ابنٌ، وسلّمه إلى مُعلمٍ يُعلِّمُهُ القرآن، فجاء يومًا قد اصفرَّ وجهُهُ، وهو يرجفُ، فسأله أبوه عن حاله، قال: علّمني الشيخُ المُعلِّمُ اليومَ آيةً وهي قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

أقول: قيل: يصيرُ الطفلُ يوم القيامة شيخًا ذا شيبةٍ إمّا لطولِ ذلك اليوم، أو لكثرةِ الأحزان والهموم فيه، وكثرةُ الحُزنِ مِمّا يُشيبُ الإنسان، كما قال ﷺ: «شيَّبتني سورةُ هود»[1] عليه السلام، وذلك لحصولِ الحزن بسبب قراءتها، ومعرفةِ ما فيها من أهوال القيامة وأحوالها، أو قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]. والله أعلم.

ثم قال الصبي: فزعَ قلبي من هول يوم القيامة، ومات من ذلك، وأبوه رحمه الله كان يبكي على قبره، ويقول: يا ولدي، أنتَ سمعتَ آيةً من كلام الله تعالى وزهقَ روحُك من الخوف، وأبوك قرأَ القرآنَ كلَّه، وختمَ كمْ مرَّة، ولم يؤثِّر فيه!.

نقل أنه رحمه الله كلّما كانَ يفرغُ من أداء الصلاة يَستحيي مثل من يُتَّهمُ بسرقةٍ أو بجريمة كبيرة.

أقول: وذلك لأنّه كان يستحقرُ عبادتَهُ، ويعظِّمُ الله تعالى غايةَ التعظيم، ثم يَستحيي من الله تعالى في أنّه خدمَ حضرته المقدَّسةَ بما لا يليق بكبريائه وعظمته. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٣) في التفسير، باب ومن سورة هود، وأبو يعلى ١/ ١٠٢، وصححه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٦، ووافقه الذهبي.

نقل أنَّ رجلاً زار أبا بكر الوراق رحمه الله، ثم عند الرجوع استوعظَهُ، فسمعوا صوتًا، ولم يَروا شخصًا: وجدنا خيرَ الدُّنيا والآخرة في قلّةِ المالِ، وشرَّ الدنيا والآخرة في كثرةِ المال، والاختلاطِ مع الناس.

نقل أنه قال: خدمتُ ألفًا من المشايخ، فما أفَادني واحدٌ منهم كما أفَادني شيخٌ وصلتُ إليه في سفرِ خراسان، ولازمتُهُ مدَّةً من الزمان، وانفتحَ لي ببركته كثيرٌ من الفتوح، ثم قال عند المُفارقة: هل يكونُ في بلدكم شيطان؟ قلت: نعم. قال: كيف تعملون معه؟ قلتُ: نحاربُهُ ليلاً ونهارًا. قال: سبحان الله، إذًا بقيتم مع العدوِّ في المحاربة والمخالفة، فمتى يكونُ الصُّلحُ والموافقةُ مع الحبيب؟ قلت: علّمنا كيف نُعاملُه. قال: إذا وصلتَ إلى قطيعِ غنمٍ عظيم، وحملَتْ عليك الكلابُ، فلا تنفعُكَ المُحاربةُ لهم والصياحُ عليهم؛ بل إنّما ينفعُكَ الاستغاثةُ بالراعي، وإلقتُكَ إيّاه، فكلُّهم يُوافقك ولا يُؤذيك أبدًا، فكذلك أنتم إن أردتُمُ الخلاصَ من الشيطان، والنجاةَ من مكره، فاختاروا محبَّةَ الله تعالى بالإخلاص، واهربوا إليه ليُنجيَكُم من شرِّ الشيطان.

وقال أبو بكر الورّاق رحمه الله: الناسُ على ثلاثةِ أقسام: الأول الأمراء، والثاني العلماء، والثالث الفقراء. فإذا فسدتِ الأمراءُ يَفسُدُ وجودُ معاش الناس واكتسابُهم، وإذا فسدتِ العلماء تفسُدُ أحوالُ الناس في الطاعات، وسلوكِ طريقِ الشريعة، وإذا فسدتِ الفقراءُ يفسدُ الناس في الصلاحِ والمعاملة مع الحقِّ جلَّ جلاله.

أقول: وتحقيقُ ذلك أنَّ الإمارةَ لأجلِ إصلاح الناس[1] في أمورِ مَعاشهم ومكاسبهم بدفع الظلم، ورفعِ الجور، ومنع المتمرّدين، وإفشاء المعدلة، وإظهار الرأفةِ بين الأنام، والمطلوبُ من العلم إصلاحُ الدين، وما ينفعُ في المعاد من معرفةِ النفس، والمبدأ والاستعداد له بالزاد الذي هو العمل الصالح، وتهذيب الأخلاق. والفقر إنّما هو لتقوية ذلك بالرِّياضة والمجاهدة، وكسر

(١) في (أ): الإمارة إنما هي لإصلاح الناس.

النفس وتصفيتها من الكُدورات الجسمانية، فإذا فسدَ كلٌّ من هؤلاء الثلاثة في الجهةِ المطلوبة منه، فلا جرمَ أنَّه تختلُّ أحوالُ المُقتدين بهم، والمُقتفين أثرهم اختلالاً ظاهرًا. والله أعلم.

وقال: إذا غلبَ الهوى أظلمَ القلبُ واسودَّ، وحينئذ يُبغضُ الناسَ، وإذا أبغضهم فهُمْ أيضًا يُبغضونه، وحينئذ تَظهرُ العداوة فيما بينهم، والجورُ وما يتبعه من الصفات الذميمة.

وقال: ما ظهرتْ فتنةٌ من لدن آدمَ عليه السلام إلى الآن بين الناسِ إلاّ بسببِ الاختلاط مع الخلقِ، وما نجا أحدٌ من الفتنِ إلى يومنا إلاّ بالعزلةِ من الخلق.

وقال: من علامةِ الولاية أن يُحدّثَ الوليُّ عن أصول العلم. قيل: وما هي؟ قال: هي علم المبدأ وعلم المقادير، وعلم العهد والميثاق، وعلم الحكمة ليس إلاّ هذا، وهذا علم أكابرِ الأولياء، ولا يقبلُهُ منهم إلاّ من لم يكن لإبليسِ حظٌّ في ولايته.

أقول: أمّا علم المبدأ: فهو ما يتعلّقُ بذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، ومنه معرفةُ النفس، وتهذيبُ أخلاقها.

وعلم المقادير: ما يبيِّنُهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] **يعني: لا شيءَ في الوجودِ إلاّ وهو مخلوقٌ لله تعالى، ومع ذلك هو بقدرٍ أي بتقديرٍ سابق، وقضاءٍ لاحق.**

وأمّا علمُ العهد والميثاق: فإمّا إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] **وإمّا إشارةٌ إلى أنَّ لكلِّ أمةٍ وطائفةٍ عهدًا وميثاقًا مع نبيِّه عليه السلام، وعلى أيِّ حالٍ فلا بدَّ من الوفاء بالعهدِ الأوّلي الذي جرى بين العبد وربِّه في الأزل، ومن ذلك مُتابعةُ النبيِّ ﷺ في جميع ما جاء به من عندِ الله قولاً واعتقادًا، فعلاً وتركًا.**

والحقُّ أنَّ كلاً من العلوم الثلاثة بحرٌ عميقٌ لا ساحلَ له، ولا يخوضُها أحدٌ

إلاّ بتوفيقِ الله تعالى، ثم اجتهادٍ من نفسه. والله أعلم.

سُئل الشيخُ أبو بكر الورّاق: هل يكونُ للوليِّ خوفٌ من سوء الخاتمة؟ قال: نعم، وليس ذلك إلاّ من الخطرات.

وقال: لا يكون يومٌ إلاّ واللهُ يحبُّ أن يكدِّرَ العيشَ على أوليائه.

وقال: يجبُ على العارف أن يكونَ مَشغولاً بذكر الله، بحيث لا يُمكنُ أن يَسألَ عنه، ولكنّ هذا سرٌّ لا يَفهمه البلعميّون[1]. قيل: ومن هم؟ قال: هم طائفةٌ لا يستأهلون فهم الآيات الإلهية.

سئل الشيخ رحمه الله عن التقوى والفتوّة، قال: التقوى أن لا يُمسكَ ذيلَكَ أحدٌ يومَ القيامة، والفتوّةُ أن لا تُمسكَ أنت بذيلِ أحدٍ ذلك اليوم.

أقول: حاصله أن لا تَظلمَ أحدًا، وإنْ ظلمَكَ غيرُك فاصفحْ عنه، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. والله أعلم.

قيل له: من العزيز؟ قال: هو الذي ما أذلَّتْه المعصية.

وقيل: من السيد؟ قال: من لم يجعلْه الشيطانُ أسيرًا.

وقال: من خافَ شيئًا هربَ منه، ومن خافَ الله تعالى هربَ إليه.

قال: أصلُ الإسلام شيئان: الأول مُشاهدةُ النعمة والمِنّة من الله تعالى. والثاني: خوفُ القطيعة.

وقال: من كانت همَّتُهُ الدِّينَ، فالله تُعالى يُصلحُ جميعَ أموره الدنيوية، ومن كانت همَّتُهُ الدنيا، فاللهُ تعالى يُفسدُ أمورَه الدينية أيضًا بشؤمِ ذلك.

---

(١) البلعميون نسبة إلى بلعام بن باعورا الذي قال الله تعالى عنه في سورة الأعراف ١٧٥ـ ١٧٦: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ انظر خبره في البداية والنهاية ١/ ٣٢٢.

قال: ينبغي للمريد أن يكسرَ رجليه ويقطعَ لسانه. قيل: ومن له طاقةُ ذلك؟ قال: من يكونُ سرُّه ناطقًا، ومسمعُ همّته سامعًا من الله تعالى.

وقال: الحكماء هم تلوُّ الأنبياء، وليس بعد النبوَّةِ إلاّ الحكمة، وأولُ علامتها الصمتُ، أو التكلّم على قدر الحاجة.

أقول: يؤيِّدُهُ ما رواه أبو هريرة أنّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذي جاره، ومن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرًا أو ليصمت»[1]. **والله أعلم..**

وقال: إنّ الله تعالى يطلبُ من العباد ستَّة أشياء: يطلبُ شيئين من القلب: الأول التعظيمُ لأمرِ الله، والثاني الشفقةُ على خلق الله تعالى. وشيئين من اللسان: الأول الإقرارُ بتوحيد الله، والثاني الصدقُ والرِّفقُ مع الخلق. ومن جميع الجسدِ شيئين: الأول الصبرُ في الله تعالى، والثاني الحلمُ[2] مع خلقِ الله تعالى.

وقال: من أحبَّ نفسَه، أحبَّهُ الكبرُ والحسدُ، والهوانُ والمذلّة.

نقل عن الشيخ أبي بكر الورّاق رحمه الله قال: جاورتُ مكَّةَ عشرين سنة، ثم في ليلةٍ من الليالي اشتهيتُ اللبنَ، فخرجتُ في طلبه، ووقعَ نظري بغيرِ اختيارٍ على جاريةٍ حسناء عسقلانية، فتبعها قلبي، وقلتُ: يا جارية، ما هذا الحسنُ الذي أذهبَ عنّي قراري؟ فقالت: اسكتْ يا فتى، لو كنتَ عاشقًا لجمالنا، تائهًا في حسننا لم يكنْ في قلبك اشتهاءُ اللبن، فإنَّ دعوى المحبَّة واشتهاءَ شيءٍ غير الحبيبِ لا يجتمعان؛ فإنّ العشقَ الحقيقي إذا نزلَ في قلبٍ لا يتركُ الغيرَ فيه. قال الشيخ: علمتُ أنّ هذا كانَ لأجلِ امتحاني، فأدخلتُ أُصبعيَّ في عينيَّ، وقوّرتُهما، وقلعتُهما، وألقيتهما، وقلت: إن عينًا تدلُّني

---

(١) الحديث رواه مسلم (٤٨) في الإيمان، باب الحثُّ على إكرام الجار، والموطأ ٢/ ٩٢٩ في صفة النبيّ ﷺ، باب ما جاء في الطعام والشراب.

(٢) في (ب): وذلك الحلم.

على الشهوة لا تليقُ بالمصاحبة. ثم بعد مُدّةٍ مديدةٍ رأيتُ يوسفَ النبيَّ عليه السلام في المنام، وقلت: يا كريمَ ابن الكريم، أقرَّ اللهُ عينك، فإنك جذبتَ ذيلَكَ عن يد زُليخا. فقال يوسف عليه السلام: يا أبا بكر، أقرَّ اللهُ عينك؛ فإنّك قلعتها لأنَّها نظرتْ إلى الجاريةِ العسقلانية، لئلا تُعيدَ النظرَ إليها. فانتبهتُ وقد ردَّ الله عليَّ عينيَّ، وصارَتْ أضوا ممّا كانت ببركة دعاءِ يوسف عليه السلام.

نقل أنه رحمه الله قال: سمعتُ بعضَ الأكابر يقول: إنَّ الشيطانَ عليه اللعنة لا يُوسوسُ للإنسانِ أوّل مرةٍ في دينه، ولا يدلُّه أولاً على الكفر؛ بل يُرغِّبُه أولاً إلى الحلال، فإذا صارَ حريصًا عليه يَستولي عليه الهوى، ثم يجترئُ بشؤم الهوى على المعاصي، ثم بعد ذلك يُوسوسُ له في دينه.

وقال الشيخ أبو بكر الورّاق رحمه الله: إنّك تُصاحبُ خمسةً، فإن علمتَ كيف تُصاحبُ نجوت، وإلاّ هلكتَ: اللهَ تعالى، والنفسَ، والشيطانَ، والدنيا، والخلقَ. فأمّا الصُّحبةُ مع الله تعالى فبالموافقةِ في أوامره ونواهيه وأفعاله، ومع النفسِ بالمخالفة، ومع الشيطان بالعداوة، ومع الدنيا بالحذرِ منها، ومع الخلق بالشَّفقةِ عليهم.

وقال: ما لم تنقطعْ عن المخلوق لا تطمعْ في الأُنس مع الله تعالى، وما دامَ قلبُكَ دائرًا في الأفكارِ، فلا تطمعْ في الفكرة والعبرة، وما لم تنظّفْ صدرك عن محبَّة الجاهِ والرياسةِ، فلا تطمعْ في الإلهامِ والحكمة.

وقال: اصحبِ العقلاء بالاقتداء بهم، والزهّادِ بحسن المُداراة، والجهّالِ بالصبر معهم.

وقال: أصلُ الإنسان من الماءِ والتراب، فبعضُ الناس يكونُ الماءُ في خلقته غالبًا، فيجب أن يُداري بالرياضة وألاّ يتغيّر عاجلاً، وبعضُهم تكون الترابيةُ غالبةً[1]، فيجوزُ أن يُؤدَّبَ بالشدَّةِ والعنف كالتراب؛ ما لم يُرْفَسْ لا يَصلحُ لبناءٍ وعمارةٍ وزراعة.

---

(١) في (أ): وبعضهم تكون ترابيَّتُهُ غالبًا فيه.

وقال: الفقيرُ مسرورٌ في الدنيا والآخرة، أمّا في الدنيا فلا يُؤخذُ منه خراجٌ، وأمّا في الآخرة فلا يُحاسب.

وقال: أخرجُ من البيت كلَّ صباح، وأعلمُ من تعشّى بالحرام[1]. قيل: كيف ذلك؟ قال: من يخوضُ في اللغو والغيبة والفحش، أعلمُ أنّه أكلَ الحرام، ومن أراه مَشغولاً بالذِّكرِ والتهليل والاستغفار أعلمُ أنّه أكلَ الحلال.

وقال: اليقينُ نورٌ يتنوَّرُ به العبد في أحواله، ثم يُوصلُهُ ذلك النورُ إلى درجةِ المُتَّقين.

سُئل عن الزهد، فقال: هو ثلاثةُ أحرفٍ: الزاء[2]، والهاء، والدال. الزاء إشارة إلى ترك الزينة، والهاء إلى ترك الهوى، والدالُ إلى ترك الدنيا.

وقال: من صحّتْ معرفتُهُ بالله تعالى، تَستولي عليه الهيبةُ والخوف والخشية.

وقال: شكرُ النِّعمةِ مُشاهدةُ المِنّةِ، ومحافظة الحرمة.

وقال: التوكلُ تخليةُ الوقت، وتصفيته عن كُدورة الحزن والانتظار. يعني: لا يكونُ لك تأسُّفٌ على ما فات، ولا انتظارٌ لما هو آت؛ بل تكون راضيًا بالنقد.

أقول: وهذا معنى قولهم: الصوفيُّ ابنُ الوقت. والله أعلم.

وقال: احترزوا عن الأخلاقِ الذميمة كما تَحترزون عن الحرام.

نقل أنه رحمه الله لما تُوفّي، رآه بعضُ الصالحين في المنامِ مصفرَّ الوجه باكيًا، فقيل له: وما هذا الحال، أخيرٌ أم لا؟ قال: أين الخيرُ؟ وفي المقبرةِ التي أنا مدفونٌ فيها لم يُدفن فيها اثنان، يكون أحدُهما مؤمنًا.

ونقل أنه رآه آخرُ في المنام، وقال: ما فعل الله تعالى بك؟ قال: الله تعالى

---

(١) في (ب): وأعلم أن كلَّ من تعشّى بالحلال.

(٢) كذا في الأصلين.

أوْقفني بحضرته، وناولني كتابًا، وأنا شرعتُ أقرؤه، فوصلت إلى موضعٍ منه قد اسودَّ، وما اطَّلعتُ على ما في ذلك الموضع، وبقيتُ متحيِّرًا، فنُوديت: يا فلان، إنه كان في ذلك الموضعِ كتابةُ ذنبٍ من ذنوبك، ونحن قد سترناه عليك في الدنيا، ومحونا اسمه عن كتابك، وعفونا ذلك عنك، وغفرنا لك، وما فضحناك في الدنيا والآخرة.

رحمه اللهُ رحمةً واسعةً، ونسألهُ أن يجعلنا من الفائزين بما يحبُّ ويرضى في البدوِّ والرجعى، ويسترَ علينا عيوبنا، ويغفر لنا ذُنوبنا، ويطهّرَ عن الكدورات البشرية قلوبنا، وأن يُصلّي على سيِّدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه أجَمعين.

* * *